الوزير عميد الدولة
محمد بن محمد بن محمد بن جهير
٤٣٥ - ٤٩٣ هـ /

أ.د. نافع توفيق العبود

كلية الآداب - جامعة بغداد

سيرته :

هو محمد بن محمد بن محمد بن جهير ، ابن الوزير فخر الدولة[١] ، ويكنى (أبو منصور) ، ولد في سنة ٤٣٥ هـ بالموصل[٢]، ونشأ في كنف والده - ولازمه في حلّة وترحاله وتقلب الأحوال به ، فأخذ عنه الشيء الكثير ولاسيما فيما يتعلق بآداب الوزارة ، وحسن خدمة الخلافة ، إذ عاش في ظلالهما ببغداد منذ وروده إليها مع أبيه في سنة ٤٥٤ هـ[٣]، وتقدم في الوظيفة حتى كان ينوب عن والده في الوزارة فيما بعد ، ولقب بـ (عميد الدولة)[٤].

نشأ أبو منصور محمد نشأة طيبة ، وتوافرت في شخصه الخصال الحميدة، وقد أجمع المؤرخون على إطرائه والثناء عليه ، فقال عنه العماد الأصبهاني: كان ذا شهامة وصرامة وحصافة وفصاحة ، له من الوقار والهيبة ، ما لم يعرف في غير الطود الأشم والبحر الخضم[٥]. ووصفه ابن الجوزي بقوله : "كان حسن التدبير ، كافياً في مهمات الخطوب - كثير الحلم ، لم يعرف أنه عجل على أحد بمكروه ، وقرأ الأحاديث على المشايخ ، وكان كثير الصدقات ، يجيز العلماء ويثابر على صلاتهم"[٦] . وقال عنه ابن الأثير : "كان عاقلاً كريماً ... الا أنه كان عظيم الكبر"[٧] . وقال مؤرخون آخرون في معناه أوصافاً حسنة منها : أنه كان كافياً ، شجاعاً ، فصيحاً ، مفوّهاً ، عارفاً ، مدبّراً[٨] ... ولهذا "انتشر عنه الوقار والهيبة والعفة وجودة الرأي"[٩].

وكان إلى ذلك كله ، قليل الكلام وجيزه ، "يكاد يعد كلامه عدّاً ، وكان إذا كلّم إنساناً كلمات يسيرة ، هنئ ذلك الرجل بكلامه"[١٠] ، بل أن بعض كلماته كانت

محفوظة مع حنّته بها ، ومن كلمه بكلمة قامت عنده مقام بلـوغ الأمـل ، وأورد بعض المؤرخين نماذج يسيرة من أقوال بهذا الشأن[١١] ، وانتقده بعضهم على هذه الميزة في شخصية وعدّوا ذلك من علامات الكبر الزائد[١٢].

لقد ثقّف عميد الدولة ابن جهير نفسه بثقافة عصره ، فقرأ الأحاديث علـى بعض المشايخ ، وأجاد الترسل الحسن والتواقيع الوجيزة ، بل قرض الشعر أيضاً، فقد أثبت العماد الأصبهاني له بعض الأبيات الشعرية ، وهي قليلـة جـداً منهـا قوله[١٣] :

يقول صديق باللسـان مخاتـر[*] كما قيل في الأمثـال عنقاء مغرب[**]
فـأما إذا ما رمت شخصاً معينـاً من الناس موجودة : فذلك متعـبّ

وله أيضاً[١٤] :

إلى متى أنت في حلّ وترحـال تبغي العُلى والمعالي مهرها غالـي
يا طالب المجد دون المجد ملحمـة في طيّها خطرٌ بالنفس والمـال
ولليالي صروف قلّمـا انجذبـت إلى مواد امرئٍ يسعـى بآمـالِ

كانت شخصية عميد الدولة ابن جهير ، مثار اعجاب الـوزير السـلجوقي نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ) فكان هذا الوزير "يصفه بالأوصاف العظيمة ، ويشاهده بعين الكافي الشهم ، ويأخذ رأيـه فـي أهـم الأمـور ، ويقدمـه علـى الكفـاة والصدور"[١٥] . وبلغ من إعجاب نظام الملك به أنه قـال : "وددتُ أنـي ولـدتُ مثله)[١٦] لهذا فلا عجب إذا ما رأينا نظام الملك مع قد صاهره وزوجه ابنته فـي سنة ٤٦٢ هـ[١٧] .

كان عميد الدولة ملازماً لوالده فخر الدولة – كما قدمنا – وبعد اسـتيزار الوالد بدأ التنويه بمنزلة الأبن ، وجاء ذلك أول مرة في سنة ٤٥٦ هـ ، أي بعـد استيزار والده بسنتين ، ففي السنة المذكورة وصلت السيدة ابنة الخليفة القائم زوجة السلطان ألب أرسلان ، قادمة من الري ، فخرج عميد الدولة لاستقبالها[١٨].

وتقلبت به الأيام ، فخرج من بغداد عندما عزل والده من الوزارة في سنة ٤٦٠هـ وكان قد سار مع أهل بيته إلى الحلة حيث الجأهم نور الدولة بن مزيد أمير المزيديين[١٩] ، ثم عاد إلى بغداد مع والده سنة ٤٦١هـ بعد عفو الخليفة القائم عن فخر الدولة ابن جهير وأعاده إلى الوزارة ثانية ، وهنا أوصله والده إلى حضرة الخليفة القائم[٢٠] .

وفي سنة ٤٦٢هـ ، خرج عميد الدولة إلى الري بمهمة إلى الوزير السلجوقي نظام الملك ، وهناك تزوج ببنت هذا الوزير[٢١] ، فكانت لهذه المصاهرة الأثر الكبير في تقريب نظام الملك له ، وزاده ذلك منزلة لدى الخلافة والسلاجقة.

خصّ الخليفة القائم عميد الدولة ببعض المهام فمن ذلك ، أنه أوفده في سنة ٤٦٤هـ إلى السلطان ألب أرسلان بشأن خطبة بنت السلطان لولي العهد عدّة الدين (المقتدي بأمر الله) فحقق عميد الدولة مهمته بنجاح ، فتمّ عقد الزواج على يديه بظاهر ينسابور ، فكان هو وكيل ابن الخليفة ونظام الملك الوكيل من جهة السلطان[٢٢] .

وظلت منزلة عميد الدولة تزداد علواً ، حتى نراه في جملة الأعيان والأماثل الذين شهدوا بيعة الخليفة المقتدي بأمر الله بعد وفاة والده القائم في سنة ٤٦٧هـ[٢٣] . ولما تسلم المقتدي الخلافة سيّره إلى السلطان ملكشاه السلجوقي لأخذ البيعة له ، وكان مسيره في تلك المهمة في شهر رمضان سنة ٤٦٧هـ، ووفق في ذلك بأخذه بيعة ملكشاه للخليفة الجديد ، وعاد إلى بغداد في سنة ٤٦٨هـ "وأوصله الخليفة إلى مجلسه الأشرف وخصته بأكرامه الألطف"[٢٤].

ويحظى عميد الدولة وأهل بيته ، بل الوزير نظام الملك بأكرام الخليفة لهم جميعاً وذلك في سنة ٤٧٠هـ ، ففي هذه السنة توفيت ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة ، نفساء بولد مات من يومه ، ودفنا بدار الخلافة (داخل السور) ، وهذا مما لم تجربه عادة من قبل ... وجلس الوزير فخر الدولة وابنه عميد الدولة للعزاء في دار بباب العامة ثلاثة أيام[٢٥].

غير أن عميد الدولة واسرته لم ينعموا طويلاً بما كان لهم من منزلة محترمة لدى الخليفة ، ووزير السلاجقة نظام الملك ، فقبل أن تنصرم سنة ٤٧١هـ، عُزل والده فخر الدولة ابن جهير من الوزارة ، وسبب ذلك يعود إلى فتنة نشبت بين الحنابلة والأشاعره[٢٦] في السنة الماضية (٤٧٠هـ) وأسفرت عن مقتل بضعة عشر قتيلاً[٢٧] بجوار المدرسة النظامية التي كان يجاورها وقتذاك مؤيد الملك ابن نظام الملك ، وقد نسب بعض أصحاب نظام الملك ما جرى إلى الوزير فخر الدولة ابن جهير[٢٨] ، فكتب أبو الحسن محمد بن علي بن أبي السقر الواسطي الفقيه الشافعي أبياتاً شعرية إلى نظام الملك يقول فيها[٢٩] :

يا نظام الملك قد حلّ ببغداد النِّظامُ
وابنك القاطن فيها مستهانٌ مستضامُ
وبها أودى له قتـ ـلى غلامٌ ، وغلامُ

.....

يا قوام الدين لم يبـ ـق ببغداد مقامُ
عظُم الخطبُ وللحر ب اتصالٌ ودوامُ
فمتى لم تحسم الدا ءَ أياديك الحسامُ

.....

فعلى مدرسة فيـ ـها ، ومن فيها السلامُ
واعتصامٌ بحريـ ـمٍ لك ، من بعدُ حرامُ

أن صورة هذا الحدث الداخلي الذي وقع ببغداد ، قد بلغت نظام الملك مع مبالغة ، فأوغرت صدره على بني جهير من غير تحقق ، فأتخذ نظام الملك من ذلك ذريعة لأحكام قبضة أصحابه السلاجقة الدخلاء ، على الأمور في بغداد ، فأقدم على تعيين كوهرائين شحنة[٣٠] في العراق ، وحمّله رسالة من عنده موجهة إلى الخليفة المقتدي ، تتضمن الشكوى من بني جهير ، وأمر كوهرائين في إيصال المكروه إليهم وإلى حواشيهم[٣١].

ونتيجة لموقف نظام الملك هذا من بني جهير ، فقد عزل فخر الدولة عن الوزارة في سنة ٤٧١هـ ، وأهملت أسرته ولكن إلى حين ... والواقع أن عزل الوزير فخر الدولة ابن جهير ، وأبعاد أنبه عميد الدولة عن نيابتها ، قد ترك فراغاً إدارياً كبيراً ، فصار الأمر والنهي للشحنة الدخيل كوهرائين ، حتى أنه تجاوز قدره بكثير ، حينما ضرب الطبل على باب داره أوقات الصلوات ، مما لم تجر به عادة لمثله من قبل[٣٢] ، ولم يستطع الوزير الضعيف أبو شجاع محمد بن الحسين - الذي استوزر بعد عزل فخر الدولة - أن يعيد الأمور إلى نصابها . بل أننا لا نكاد نحس بأي دور له في وزارته ، وقد صور حاله الشاعر ابن اطبارية بقوله[٣٣] :

وأبو شجاع في وزارته كالخرس لا بل دونه الخرسُ

وزارته الأولى :

تلمس عميد الدولة واقع الحال المتردي الذي نجم عن إقصاء والده وأبعاده معه عن الوزارة ، وأدرك عجز الوزير أبي شجاع في تسيير الأمور وحفظ هيبة الخلافة والوزارة معاً ، هذا مع استبداد كوهرائين وطغيانه . لهذا لم يستكن لما جرى ، ولاسيما وهو البصير في الأعمال وذو الهمة العالية ، فخر ذلك كله في نفسه ، ودفعه إلى شدّ رحاله إلى نظام الملك فقصده ... واستعطفه حتى انتزع ما في صدره من حقد على أسرته بني جهير ، فأعاده إلى المألوف منه أزاءهم من مودة وعلاقة حسنة[٣٤].

ونتيجة ذلك كتب الوزير نظام الملك إلى الشحنة كوهرائين ، منكراً عليه ما فعله بحق الديوان العزيز والوزير فخر الدولة ابن جهير ، وأمره بإعادة ما أخذه وما تعرّض له من قبل ، ... ثم عاد عميد الدولة إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ٤٧١هـ[٣٥] .

وبعد ذلك ، وفي شهر ذي القعدة من سنة ٤٧١هـ ، وقع الرضى عن عميد الدولة والتعويل عليه في خدمة الخلافة ، إذ كتب نظام الملك إلى الخليفة

المقتدي يسأله إعادة بني جهير إلى الوزارة[٣٦] . وفي سنة ٤٧٢هـ أخرج الخليفة توقيعه باستيزار عميد الدولة وخلع عليه الخلع السنية[٣٧].

استهل عميد الدولة وزارته بإصلاح جملة من الأمور التي تتعلق بالمصلحة العامة ، ومن ذلك شدّه على يد المحتسب أبي جعفر أبن الخرقي الشاهد الذي رتب بالحريم الطاهري[٣٨] ، وكان هذا المحتسب قد رأى اختلالاً في الموازين وتطفيفاً فاشياً ، فعزّز وأدّب "فانحرست الأمور وأنحسمت الأدواء"[٣٩] .

وفي السنة الأولى من وزارته ، التفت إلى سد البثوق بالفلوجة ، تلك البثوق التي انفجرت منذ سنة ٤٦٨هـ وتسببت في إنقطاع الماء من النيل وغيره من الأعمال وجلاء أهل المناطق منها[٤٠].

ولم يأل الوزير عميد الدولة جهداً في إقرار الأمن والضرب على أيدي العابثين ، بل حراسة الخلافة من بعض المناوئين لها ، ففي سنة ٤٧٣هـ ، ظهر جماعة ببغداد انتسبوا إلى الفتوة وتزعمهم رجلان يعرف أحدهما بابن الرسولي الخبّاز والآخر عبد القادر الهاشمي البزاز . فصار لهؤلاء نوع من التنظيم الذي تجاوز بغداد ، فقد أورد ابن الجوزي ، أن عبد القادر الهاشمي لقب نفسه بكاتب الفتيان ، وكتب لكل من يدخل في الفتوة منشوراً بتقليده صقعاً[٤١].

ويبدو أن هدف هؤلاء ، هو الدعوة لصاحب مصر الفاطمي – متخذين من ذكر الفتوة والتستر وراءها عنواناً في هذا السبيل[٤٢] . غير أن أمر الرسولي وصاحبه أنكشف ، فأمر الوزير عميد الدولة بالقبض عليهما ، وتولّى نفسه التحقيق، فاعترف الرسولي بصحة ما نسب إليه ، وكشف عن أصحابه جميعاً ، فلم يكف عميد الدولة عنهم ، بل أمر بتعقّبهم فقبض على جماعة منهم ، وهرب الباقون ... ثم أخذت فتاوى الفقهاء عليهم ، بوجوب كفهم عن فعلتهم[٤٣] التي قد تعرض الخلافة للخطر.

استمر عميد الدولة في وزارته الأولى هذه حتى عزله الخليفة المقتدي في سنة ٤٧٦هـ . والملاحظ أن المصادر – المتوفرة بين أيدينا – لم تمدنا بشيء مهم

عن أخباره في وزارته ما بين سنتي ٤٧٤-٤٧٦هـ ، ولعل ذلك يعود إلى تسلط عميد العراق أبي الفتح بن أبي الليث واستبداده بالأمور إلى درجة شكاه الخليفة المقتدي إلى السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك ، وذلك في سنة ٤٧٥ هـ[٤٤]. وكل ما وصلنا من أخباره خلال المدة المذكورة ، اقتصر على استقباله مؤيد الملك بن نظام الملك اذي وصل بغداد في جمادي الآخرة سنة ٤٧٥هـ ، وكان قدومه من أصبهان[٤٥].

ومن أخباره أيضاً ، التي تكاد لا تستحق الذكر ، جلوسه مع والده فخر الدولة في مجلس عزاء جمال الملك منصور بن نظام الملك الذي توفي في السنة المذكورة[٤٦].

وعلى الأجمال ، يمكن القول : أن بني جهير حظوا برعاية الخليفة المقتدي خلال وزارة عميد الدولة الأولى ، فقد خصّ المقتدي عميد الأسرة (فخر الدولة أبن جهير) فأوفده في بعض مهامه الشخصية ، وذلك عندما سيّره إلى السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك ، بمهمة خطبة المقتدي لأبنة السلطان (سفرية خاتون) لنفسه ، ولا ريب أن الخليفة كان قد قدّر في فخر الدولة رجاحته ومنزلته في نفس السلطان وزوجته التي كانت أبدت معارضتها لهذا الزواج بادئ الأمر ، ولكن فخر الدولة أفلح في أقناعها وزوجها .. وعاد من أصبهان إلى بغداد . وكان ذلك قد جرى في سنة ٤٧٥هـ[٤٧].

لقد دامت مدة وزارة عميد الدولة هذه أربع سنوات ، وفي سنة ٤٧٦هـ تغيرت نية الخليفة المقتدي على بني جهير ، فحجب ثقته عنهم فصاروا لهذا متهمين عنده[٤٨] ، لهذا أخرج الخليفة توقيعه إلى الوزير عميد الدولة بعزله وضمنه : ((... أنصرف من الديوان إلى دارك ، وخلّ ما أنت منوط من نظرك))[٤٩] .

لم توضح لنا المصادر الدافع الذي حدا بالخليفة إلى اتخاذه هذا القرار ، فلم يتهم الوزير عميد الدولة بتقصيره أو بعجزه ، أو باختلاس مال أو غير ذلك مما

جرت عليه العادة في عزل الوزراء .. إذ لم تقع عليه المصادرة ، علماً أن أموال بني جهير أودعت لدى عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني أحد شيوخ المعتزلة[٥٠] ، وأغلب الظن أن تكون الوشاية والحسد وراء عزله . ومهما يكن . فقد غادر عميد الدولة ووالده وأهله بغداد ، فقصدوا السلطان ملكشاه بغير استئذان الخليفة المقتدي – كما ذكر أبن الجوزي[٥١] – ، بينما خالفه ابن الأثير في ذلك . فقال في حوادث سنة ٤٧٦هـ :

((في هذه السنة ، في صفر ، عُزل عميد الدولة بن جهير عن وزارة الخليفة ووصل يوم عزل رسول من السلطان ونظام الملك ، إلى الخليفة يطلبان أن يُرسل إليهما بنو جهير ، فأذن لهما في ذلك . وساروا بجميع أهلهم ونسائهم إلى السلطان))[٥٢].

وبعد مغادرة بني جهير بغداد وقصدوا سلطان السلاجقة (ملكشاه) كتب الخليفة إلى السلطان يحرضه عليهم ويقول له :

((بأن بني جهير لا طريق إلى اعادتهم واستخدامهم ، وألتمس أن يبعدوا...))[٥٣] . غير أن السلطان لم يلتفت إلى ذلك ، وصادف بنو جهير منه ومن وزيره نظام الملك ، الإكرام والاحترام ، وعقد السلطان (في سنة ٤٧٦هـ) لفخر الدولة على ديار بكر وخلع عليه ، ويسرّ معه العساكر وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان ، وأن يخطب لنفسه ، ويذكر اسمه على السكة ، فقصدها وانتزعها من بني مروان فأزال إمارتهم في سنة ٤٧٨ هـ[٥٤] .

أما عميد الدولة ، فقد خلع عليه السلطان أيضاً ، وسيره في سنة ٤٧٧هـ على رأس جيش كبير إلى الموصل واستولى عليها وضمها إلى السلطان ملكشاه بعد أن سلمت له بالطاعة[٥٥].

والجدير بالذكر أن الخليفة المقتدي اعاد إلى الوزارة – بعد عزل عميد الدولة – أبا شجاع محمد بن الحسين ... فظل هذا يتولاها حتى سنة ٤٨٤هـ في

حين ظلّ عزل عميد الدولة يحزّ في نفوس البعض من محبّيهم ومن هؤلاء الشاعر ابن البيارية الذي قال[٥٦] .

ما حطّ قدرهم ولا أزرى بهـــم عزل عجلت به وأنت سديـــدُ
لكن به ظهرت حقائق سعدهـــم والسيف يبدي ماءه التجريـــدُ
والأسد أولى بالعرين ، فكم غـدا يختال في خيس الخلافة سيـــدُ
وكذا سرار البدر أصل كمالـــه وبسوء فعل النار يذكى العـــودُ

وزارته الثانيـة :

في التاسع من شهر رمضان سنة ٤٨٤ هـ ، عزل الخليفـة المقتـدي ، وزيره أبا شجاع محمد بن الحسين لأسباب منها وشكوى أصحاب السـلطان منـه ولاسيما الشحنة كوهرائين ، وإظهاره الرغبة في أعفائه من الوزارة ، هـذا إلـى ابدائه تذمره من السلاجقة وسلطانهم ، كما نستشف ذلك من تعليقه ، عندما جـاء البشير من عند السلطان ملكشاه ، ينبئ باستيلائه على سمرقند ، إذ قال : (وأتـي بشارة هذه ، كأنه فتح بلداً من بلاد الكفر ، وهل هم إلا قوم مسلمون ، استبيح منهم ما لا يستباح من المسلمين)[٥٧] .

بلغ السلطان هذا القول الجريء ، فامتعض منه ، كما غضب نظام الملـك على الوزير أبي شجاع ، حتى طالب بعزله ، بل وإخراجه من بغداد ، وهكذا كان حيث عزل وخرج بعد عزله إلى دراورد[٥٨] موطنه قديماً[٥٩] . وبعد عزله استنيب في الوزارة أبو سعد بن الموصلايا ولقب أمين الدولة[٦٠].

وهنا أثر الخليفة المقتدي ، إعادة أبي نصر عميد الدولة ابن جهيـر إلـى الوزارة ، لما يعلمه فيه من كفاءة ومقدرة ، فضلاً عن مكانته التي أزدادت علـواً لدى السلطان ونظام الملك ، وتقديرهما البالغ له ، لذلك أرسل الخليفة إليهمـا أبـا محمد التميمي[٦١] ويمن الخادم . بقصد استدعاء عميد الدولة إلى بغداد ليسـتوزره فسُيّر إلى الخليفة ، وفي ذي القعدة من سنة ٤٨٤هـ استوزر مرة ثانيـة وخلـع

الخليفة عليه ، فركب إليه نظام الملك (وكان وقتئذ ببغداد) فهنّاه بالوزارة[٦٢] ، وأكثر الشعراء التهنئة له في إشعارهم التي قالوها في تلك المناسبة ... ومن ذلك ما مدحه به الأديب محمد بن عمر بن محمد بقوله[٦٣] :

بك الملك يزهى والخلافة تفخرُ ومثلك ينهى في البرايا ويأمرُ
وما نلت من بحبوحة المجد رفعةً تذوق المنى الاّ وقدرُك أكبرُ
لعمرك ما زادتك إلا تواضعاً إذا كل خدّ دونها يتقعّرُ
أتتك فلم تنهض لها وتبرّجت بلبسك إيّاها ، وعادت تبخترُ
ولم يك إلا الحق لاقى نصابه أو الروض حيّاة الحيا وهو يزهرُ
فملّيتها[*] .. بل مليتك فأتّها - ومجدك - أن تهنّا وأجدرُ
وعمرت مأهول الجناب فإنّما رباع العلى ما دمتُ تعمر - تعمر

باشر عميد الدولة مهامه في وزارته الثانية ، وهو في ذلك معتضداً بالسلطان ملكشاه ونظام الملك ، فنراه يعمد إلى مداراتهما .

فلما كانت سنة ٤٨٥ هـ ، تغيرت فيه السلطان على الخليفة المقتدي ، وهمّ بتشعيث أمره ، ولتحقيق هدفه المزعوم ، سار هو ووزيره نظام الملك من اصبهان قاصدين بغداد ، وشاعت الظروف أن يُقتل نظام الملك في الطريق ، في العاشر من رمضان من السنة المذكورة[٦٤] ... ومع هذا فقد غذّ السلطان سيره نحو بغداد فدخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان ، فركب عميد الدولة إلى دار السلطان فينأه عن الخليفة بمقدمه[٦٥].

ولكن السلطان لم يلبث أن جهر بنيته السيئة المبيّتة أزاء الخليفة المقتدي ، فبعث إليه يقول : (لابد أنْ تترك بغداد ، وتنصرف إلى أي البلاد شئت)[٦٦].

أنزعج الخليفة من ذلك إنزعاجاً شديداً ، ولكن لم يكن له حول ولا قوّة .. وحاول مفاوضة السلطان بأن يمهله شهراً ولكن من دون جدوى ، وأخيراً أمهله السلطان عشرة أيام للخروج بوساطة وزيره تاج الملوك أبي الغنائم .. ويبدو أن

وزير الخليفة عميد الدولة ابن جهير حاول مقابلة السلطان ومحادثته في الأمر الخطير ولكن من دون جدوى ، حتى أنه لم يقدر أن يصل إليه . وحينئذ توترت الحال ونقل أرباب الدولة أموالهم إلى حريم الخلافة(٦٧) .

وشاعت الظروف قبل انقضاء مهلة العشرة أيام أن يتوفى السلطان ملكشاه، ذلك أنه خرج إلى الصيد فأخذته الحمى اثر اقتصاده فمات في ليلة الجمعة النصف من شوال سنة ٤٨٥هـ(٦٨) ، وأنقذت الخلافة من كيده السيئ .

والذي يهمنا هنا أننا لم نقف على ما يدل على تغيّر نية السلطان المذكور إزاء عميد الدولة وزير الخليفة أو ميله إلى عزله ، إبان ازدرائه للخليفة وطلبه منه مغادرة بغداد – كما قدمنا – لهذا بقي عميد الدولة في منصب الوزارة ، واستمرت خلافة المقتدي على حالها .. في حين جاء إلى السلطنة بركيا روق بن ملكشاه(٦٩).

كان السلطان الجديد (بركيا روق) قبيح السيرة ، فأذنت عرى السلطنة بالإنفصام في أيامه .. فقد نازعه أخوة تاج الدولة تتش الذي طمع بالسلطنة ، وتغلب على الرحبة(٧٠) ودخل في طاعته آق سنقر صاحب حلب وبوزابة صاحب الرها(٧١).. ثم امتد نفوذه إلى ديار بكر والموصل ، وأرسل إلى الخليفة المقتدي يطلب الخطبة له على منابر بغداد ، ولكن بركيا روق حاربه وهزمه في سنة ٤٨٦هـ ، وتغلب على ما في يده من البلاد(٧٢).

ولما عاد بركيا روق من حربه لأخيه تتش ، عطف نحو بغداد ، دخلها في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة ، فخرج الوزير عميد الدولة في الموكب لتلقّيه نيابة عن الخليفة المقتدي ، وكانت الظروف التي تكتنف الخلافة وقتئذ صعبة للغاية لاجتماع العساكر ببغداد مع السلطان بركيا روق ، ونشبت الفتن بين المحلات ، وعاشت القبائل في الأرض فساداً ... وفي هذه الظروف كتب المقتدي عهده لبركيا روق وخطب له بالسلطنة على رسم أبيه(٧٣) .. وظلت الحال هكذا ، حتى وفاة الخليفة المقتدي فجأة في شهر محرم سنة ٤٨٧هـ(٧٤).

لما توفي المقتدي ، أحضر ولده أبو العباس أحمد (المستظهر بالله) وأعلم بموته ، فبايعه عميد الدولة وزير أبيه ، وسعى هذا في أخذ البيعة للمستظهر من أعيان الدولة وأرباب المناصب وبعض كبار الفقهاء والعلماء الذين بايعوا الخليفة الجديد[٧٥].

كان المستظهر – وقتئذ – شاباً حدثاً ، لم يتجاوز السادسة عشرة إلا بشهرين ، فهو لهذا تعوزه التجربة والخبرة لتسيير أمور الدولة ، لذا أقرّ عميد الدولة في وزارته له ، وفوّض إليه تدبير الأمور وامضائها باجتهاده ، حيث خاطبه قائلاً : ((الأمور مفوّضة إليك ، والتعويل فيها عليك ، فدبّرها بما تراه ... الخزائن بحكمك ، فتصرف فيها عن غير استنجاز ولا مراجعة ولا محاسبة))[٧٦].

وهكذا أوكلت المهام المختلفة للوزير عميد الدولة في ظرف قلق ، ولاسيما أن السلطان بركيا روق كان ما زال مقيماً بعساكره في بغداد ، ولا يمكن الاطمئنان إلى سلامة موقفه ، وقدّر الوزير الحاذق خطورة الموقف ، وعبر عن حاجة هذا للخليفة بقوله : (هذا وقت صعب ، وقد اجتمعت العساكر ببغداد مع هذا السلطان الذي عندنا ، ولابدّ من بذل الأموال التي تستدعي أخلاصهم وطاعتهم)[٧٧]. ونحن لا نلوم عميد الدولة على بذله الأموال للسلطان وجنده ، خاصة وأن السلطان أبدى نية غير مرضية للخلافة منذ أيام المقتدي ، ولا يستبعد أن يكون عميد الدولة قد استرضاه بالمال وحصل بيعته للخليفة المستظهر بالله.

وبعد هذه الأحداث التي أحاطت بالخلافة ، واصل الوزير عميد الدولة تحمّل مسؤولياته بكل جدّ وأخلاص ، فالتفت إلى القضاء وأبدى اهتمامه به ، إذ ولّى القاضي أبا الحسن بن علي بن محمد الدامغاني في منصب قاضي القضاة ، ورفع من شأنه حينما خلع عليه في الديوان ، فقام قاضي القضاة بتوليه أخيه أبي جعفر قضاء الرصافة وباب الطاق[٧٨] ، ومن أعلى بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد[٧٩].

وفي سنة ٤٨٨ هـ ، سيّر الملك تتش بن محمد بن ألب أرسلان ، شحنة لبغداد من قبله يدعى يوسف بن أبق التركماني ، ومعه جمع من التركمان ، ولكن يوسف مُنع من دخول بغداد ، فعسكر في ظاهرها ، وطلب خروج الوزير عميد الدولة لمقابلته ، فامتنع الوزير وأبى عليه ذلك ، وعدّها مكيدة مدبرة عليه ، والراجح أنه استدعى صدقة أبن مزيد صاحب الحلة ، وأستعان به على يوسف التركماني ، حيث سار صدقة للقائه ، فتراجع يوسف إلى طريق خراسان لما علم بخبر مسير صدقة إليه ، وبعد أن عاد صدقة إلى الحلة استغل يوسف عودته ، فعزم على مداهمة بغداد ونهبها على النحو الذي فعله بباجسرى[٨٠] وبعقوبا من نهب ... ولكن البغداديين تأهبوا لقتاله ومن معه ، فشحذوا اسلحتهم وحرسوا مدينتهم ... وفي تلك الأثناء وصل الخبر إلى يوسف بقتل صاحب تتش ، فرحل عن بغداد خائباً وقصد الموصل وسار منها إلى حلب[٨١] .

ولعل هذه الحادثة ، هي التي حدت بالخليفة المقتدي بأمر الله ، إلى ضرورة تحصين بغداد خاصة في جانبها الشرقي ، تحسباً لما قد يبديه رجالات السلاجقة الأعاجم من تجاوز عليها ، على النحو الذي فعله ابن أبق التركماني ، فبعد مضي شهرين من عودة هذا عن بغداد ، شرع الخليفة في عمل سور على حريم دار الخلافة (في الجانب الشرقي) . وفي الثامن عشر ربيع الآخر من سنة ٤٨٨ هـ ، خرج الوزير عميد الدولة أبو منصور ، فخطّ السور على الحريم ، وقدره وسعه المساح ، وجنى المال الذي يحتاج إليه ، ثم اذن الوزير للعامة في الفرجة والعمل ، فخرجت ، وهي تحمل الأعلام والبوقات وتضرب الطبول ، ومعهم أنواع الملاهي المستعملة في التمثيل والإضحاك ، وغير ذلك من التماثيل والتشبيهات[٨٢].

والجدير بالذكر هنا ، أن أبا الوفاء علي بن عقيل البغدادي[٨٣] (ت ٥١٣هـ) - شيخ الحنابلة في عصره - قد أنكر ما عبّرت عنه العامة في تلك

الاحتفالية الغامرة ، فكتب كتاباً إلى الوزير عميد الدولة ، انتقد فيه ذلك ، مما جاء في كتابه :

(لو لا اعتقادي صحة البعث ، وأن لنا داراً أخرى ، لعلي أكون فيها على حالٍ أحمدها ، لما بقضت نفسي إلى مالك عصري ، وعلى الله اعتمد في جميع مما أورده بعد أن أشهده أني محبّ متعصب ، لكن إذا تقابل دين محمد ودين بني جهير ، فو الله ما أزن هذه بهذه ، ولو كنت كذلك كنت كافراً ، فأقول أن هذا الخرق الذي جرى في الشريعة عن عمد لمناصبة واضعها ، فما بالنا نعقد الختمات ورواية الأحاديث ؟ ... يا شرف الدين ، أتق سخط الله ، فأن سخطه لا تقاومه سماء ولا أرض ... ثم لا تلومنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام ، لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الإعظام لهذه القبائح والإنكار لها والنياحة على الشريعة ... وقد ملأتكم في عيونكم مدائح الشعراء ومداجاة المتموّلين بدولتكم ، الأغنياء الأغبياء الذين خسروا الله فيكم ، فحسنوا لكم طرائقكم ، والعاقل من عرف نفسه ...)[٨٤].

ويعدّ هذا الكتاب بحق مذكرة احتجاج قوية رفعها أبو الوفاء أبن عقيل إلى الوزير عميد الدولة محمّلاً إياه مسؤولية ما جرى من اخراق العامة للشريعة – حسب رأيه – . والملاحظ أن الوزير لم يغضب على كاتبها ، ويمكن تعليل ذلك بأن أبا الوفاء (فريد دهره وإمام عصره)[٨٥] كان يتمتع بمنزلة محترمة كبيرة ، يحظى بها من لدن الخليفة المستظهر بالله والمجتمع البغدادي ، ولاسيما إذا علمنا أنه كان من بين الأكابر والأعيان الذين شهدوا بيعة المستظهر بالخلافة[٨٦] . ولا يخفى أيضاً توقير الوزير له ، حيث كان نفسه محباً للعلماء ، فلم يجرؤ على الدخول في مجابهة مع أبي الوفاء ، فيثير عليه أصحابه الحنابلة في وقت هدأت فيه رياح الفتن المذهبية .

استمر عميد الدولة أبو منصور في وزارته الثانية ، حتى عزله ووفاته في سنة ٤٩٣هـ – كما سيأتي ذكره – وكل ما وصل إلينا من أخباره خلال هذه الفترة الممتدة (ما بين ٤٨٩-٤٩٣هـ) يعدّ يسيراً ، الأمر الذي نستنتج منه ضعفه في وزارته ، واضطراب أمور البلاد بسبب عيث القبائل ونشاط العيارين المتزايد،

فضلاً عن تحكم رجالات السلاجقة وادلالهم على الخلافة . ولعلّ ما يمكننا التنويه به من دور للوزير عميد الدولة هنا ، هو ما جاء إلينا من أخباره في سنة ٤٩١هـ، ففي شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، اشتد الخطر الصليبي على المشرق العربي الإسلامي ، وتواترت الشكايات بكل مكان ، فأصدر السلطان السلجوقي بركيا روق أوامره إلى الأمراء ، يأمرهم بالتأهب والخروج مع الوزير عميد الدولة للجهاد(٨٧) .

لبّى بعض الأمراء نداء السلطان بركيا روق ، وتأهبوا واجتمعوا في بيت النوبة ببغداد ، وضرب الشحنة كوهرائين مضاربه في جانب الكرخ ، وبرز سيف الدولة صدقة بن مزيد من الحلة وعسكر قرب الأنبار ... ولكن عزيمة الأمراء انفسخت فلم ينفووا تحت قيادة الوزير عميد الدولة . وفي تلك الأثناء وردت الأخبار بأن الصليبيين أستولوا على أنطاكية ، ثم ساروا إلى معرة النعمان فحاصروها ودخلوها فقتلوا ونهبوا(٨٨).

ومن المؤسف حقاً أن أنحلّت عزيمة الجهاد في نفوس أمراء المسلمين ، في الظرف العسير ، الذي كانت الأمة فيه تشكو خوراً في قواها سببه تمزق الكلمة وقتذاك ... فانفسح المجال واسعاً أمام الغزاة الصليبيين لانعدام المانع ، فانساحوا في بلاد الشام حتى احتلوا بيت المقدس في سنة ٤٩٢هـ ، وقتلوا فيها ما يزيد على سبعين ألفاً(٨٩) .. فكان هول المصيبة عظيماً . وورد المستنفرون إلى بغداد وفي جملتهم أبو سعد الهروي قاضي دمشق ، الذي أورد في الديوان كلاماً أبكى العيون وأرجع القلوب ، وندب من الديوان بعض من يمضي إلى السلطان السلجوقي ويعرفه حال تلك المصيبة . ثم وقع التقاعد ، وعاد الموفدون من غير بلوغ أرب(٩٠).

لقد شهدت السنوات بعد سنة ٤٩١هـ ، نشوب خلافات حادة وطويلة بين أبناء البيت السلجوقي – مما لا مجال لذكره في هذا البحث(*) – ولكن الذي يهمنا بصدد ما نحن فيه هو أن جانباً من تلك الخلافات والصراعات أنعكس على وزارة

عميد الدولة وزير الخليفة ، فقد نشب الصراع بين السلطان بركيا روق وأخيه محمد ، ومال الناس إلى محمد وأقيمت الخطبة له في بغداد سنة ٤٩٢ هـ ، فاستشاط بركيا روق غضباً .. فزحف نحو بغداد في شهر صفر من سنة ٤٩٣هـ فدخلها ، وكان الوزير عميد الدولة قد استقبله لتلطيف علاقته به . ولما كان السلطان بركيا روق بحاجة ماسة إلى المال للإنفاق على عسكره ، فأنه تذّرع إلى استحصال ما يمكن استحصاله من الوزير عميد الدولة ، واتهمه بتصرفه بأموال عادت عليه وعلى والده فخر الدولة ابن جهير ، عندما استوليا على ديار بكر والجزيرة والموصل أيام السلطان ملكشاه . وصادره بركيا روق أخيراً على مائة وستين ألف دينار حملها الوزير إليه[٩١] .

عزله من الوزارة ووفاته :

في شهر رمضان من سنة ٤٩٣هـ ، عزل الخليفة المستظهر وزيره عميد الدولة من وزارته ، – بناء على رغبة السلاجقة ، ثم صادره على خمسة وعشرين ألف دينار أخذها منه ، واستصفى أموال اتباعه ومن كان يلوذ به[٩٢].

وآل أمر الوزير عميد الدولة ، إلى زجّه في الحبس بدار الخلافة ، وأخرج ميّتاً في شهر شوال من السنة المذكورة ، وحمل إلى داره ، فغسل فيها ، ودفن في التربة التي استجدّها في قداح ابن رزين[٩٣] في الجانب الشرقي من بغداد[٩٤].

وجاء في إحدى الروايات ، أن المستظهر أدخل عميد الدولة حمّاماً وسمّر عليه الباب إلى أن مات فيه . وأخرج للشهور ليشهدوا أنه ليس في أثر قتل . وكان في جملة الشهود أخوة الكافي ، الذي أنكر ذلك وصاح :

((يا أخي يا أبا منصور قتلوك !! وجعل يرددها دفعات))[٩٥].

ولا نستبعد أن يكون لهذه الرواية ظلّ من الحقيقة .

ومهما يكن .. فقد انتهت حياة هذا الوزير الخطير على نحو مأساوي ، في حبسه ، بعد أن خدم ثلاثة خلفاء ، ووزر لخليفتين منهم .

الهوامـــش :

١ - فخر الدولة : هو محمد بن محمد بن جهير التغلبي ، ولد في الموصل سنة ٣٩٨هـ وتوفي بها سنة ٤٨٣هـ. وتقلبت بها الأحوال ، فخدم العقيليين وبني مروان ، ثم انحدر إلى بغداد في سنة ٤٥٤هـ ووزر للقائم بأمر الله ثم عزل عن الوزارة ، وأعيد إليها في سنة ٤٦١هـ ، وظل في وزارته الثانية بقية خلافة القائم (ت ٤٦٧هـ) وبعضا من خلافة المقتدي ، حيث عزله هذا الخليفة في سنة ٤٧١هـ . ثم خرج من بغداد في سنة ٤٧٦هـ وقصد السلطان السلجوقي ملكشاه والذي سيره للاستيلاء على تملكات المروانيين في ديار بكر وغيرها . وأخيراً حط رحاله في الموصل وتوفي بها سنة ٤٨٣. وقد تناولت الوزير فخر الدولة ابن جهير ببحث أفردته له هو الآن قيد النشر.

٢ - ابن الاثير، الكامل : ٢٩٩/١٠ .

٣ - العماد الأصبهاني، خريدة القصر – القسم العراقي : ٨٨٠/١ بسيط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٤٩-٢٥٠ .

٤ - العماد الأصبهاني، خريدة : ٨٨/١-٨٩ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ١٢٨/٥.

٥ - العماد الأصبهاني، خريدة : ٨٧/١.

٦ - ابن الجوزي، المنتظم : ١١٨/٩ .

٧ - أبن الأثير، الكامل ك ٢٩٩/١٠.

٨ - ينظر : الذهبي، العبر: ٣٣٧/٣ . الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٢٧٢/١.
ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ١٣٠/٥.

٩ - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب : ٣٧٠/٣ .

١٠ - أبن الأثير ، الكامل : ٢٩٩/١٠ .

١١ - ابن الجوزي ، أخبار الأذكياء : ٥٣.

١٢ - العماد الأصبهاني ، خريدة : ٩٢/١ ، أبن العماد ، شذرات الذهب : ٣٧٠/٣.

(*) مخاتر: مخادع و (**) عنقاء مغرب : ذهبت به الدامية . (أنر خريدة القصر ٦١/١/حاشية ٧) .

١٣ - العماد الأصبهاني ، خريدة : ٩١/١.

١٤ - المصدر نفسه : ٩١/١ . أبن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية : ٣٩٧.

١٥ - أبن العماد ، خريدة : ٩٢/١ . أبن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٩٧/٥ ، ابن العماد ، شذرات : ٣٧٠/٣ .

١٦ - أبن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٩٧/٥ .

١٧ - أبن الأثير ، الكامل : ٦١/١٠ . أبن خلكان ، وفيات الأعيان : ٢٩٧/٥ ، أبن العماد ، شذرات : ٣٧٠/٣ .

١٨ - أبن الأثير ، الكامل : ٣٥/١٠ .

١٩ - للتفاصيل عن المزيديين يراجع : الدكتور عبد الجبار ناجي، الإمارة المزيدية : دراسة في وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

٢٠ - أبن الجوزي ، المنتظم : ٥٣/٨ .

٢١ - أبن الأثير ، الكامل : ٦١/١٠ .

٢٢ - أبن الجوزي، المنتظم : ٢٧٣/٨-٢٧٤ . أبن الأثير ، الكامل : ٧٠/١٠-٧١ .

٢٣ - أبن الأثير ، الكامل : ٩٦/١٠ .

٢٤ – العماد الأصبهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق – اختصار البنداري : ٥٤.

٢٥ – المصدر نفسه : ٥٥ . أبن الجوزي ، المنتظم : ٣١٧/٨ . أبن الأثير ، الكامل : ١٠٨/١٠ .

٢٦ – الاشاعرة : عرفت الاشاعرة بهذا الأسم ، نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الذي يرقى نسبه إلى أبي موسى الأشعري . وقد توفي أبو الحسن في حدود سنة ٣٠٠ هـ باختلاف الروايات ، وهو بصري سكن بغداد ، وكان متكلماً ... (ينظر : السمعاني، الأنساب : ١٦٦/١٠ . السبكي ، طبقات الشافعية : ٥/٣٠) .

٢٧ – أبن الجوزي ، المنتظم : ٢١٢/٨ .

٢٨ – أبن الأثير ، الكامل : ١٠٩/١٠ .

٢٩ – المصدر نفسه : ١٠٩/١٠-١١٠.

٣٠ – الشحنة : هي وظيفة عسكرية أقرب ما تكون في عصرنا هذا إلى وظيفة حاكم عسكري أو مدير شرطة (الدكتور جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الالخانيين : ٧٥) .

٣١ – أبن الأثير ، الكامل : ١١٠/١٠ .

٣٢ – المصدر نفسه : ١١٢/١٠ .

٣٣ – العماد الأصبهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٦٧ .

٣٤ – المصدر نفسه : ٥٥ . أبن الجوزي ، المنتظم : ٣١٨/٨-٣١٩ .

٣٥ – أبن الأثير ، الكامل : ١١٠/١٠ .

٣٦ – أبن الجوزي ، المنتظم : ٣١٩/٨ . ابن الأثير ، الكامل : ١١١/١٠.

٣٧ – العماد الأصبهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٥٥.

٣٨ - الحريم الطاهري: أعلى مدينة السلام بغداد في الجانب الغربي ، منسوب إلى طاهر بن الحسين . ومن لجأ إليه آمن فلذلك سمي بالحريم (ياقوت الحموي، معجم البلدان : ٢/٢٥١) .

٣٩ - ابن الجوزي ، المنتظم : ٨/٣٢٣.

٤٠ - أبن الأثير ، الكامل : ١٠/١٠٠-١٠١ .

٤١ - أبن الجوزي ، المنتظم : ٨/٣٢٦-٣٢٧.

٤٢ - المصدر نفسه : ٨/٣٢٧ .

٤٣ - المصدر نفسه : ٨/٣٢٧ .

٤٤ - أبن الأثير ، الكامل : ١٠/١٢٥ .

٤٥ - أبن الجوزي، المنتظم : ٩/٣ .

٤٦ - أبن الأثير ، الكامل : ١٠/١٢٣ .

٤٧ - أبن الجوزي ، المنتظم : ٩/٢ .

٤٨ - المصدر نفسه : ٩/٦ .

٤٩ - المصدر نفسه : ٩/٥ .

٥٠ - المصدر نفسه : ٩/٨٩-٩٠ .

٥١ - المصدر نفسه : ٩/٥ .

٥٢ - أبن الأثير ، الكامل : ١٠/١٢٩ .

٥٣ - أبن الجوزي ، المنتظم : ٩/٦ .

٥٤ - أبن الأثير ، الكامل : ١٠/١٢٩ .

٥٥ - المصدر نفسه : ١٠/١٣٦ .

٥٦ - العماد الأصبهاني ، خريدة – القسم العراقي : ٢/٧٧.